1–دراسة تطبيقية لقصة الناسك وابن عرس ،مأخوذة من كتاب كليلة و دمنة

1 - تقديم
2 - مستوى الأعمال
2 - 1. المقطع الأول
2 - 2. المقطع الثاني
2 - 3. المقطع الثالث
3 - مستوى الفواعل
3 - 1. الشخصيات
3 - 1. الفاعلية والمفعولية
4 - مستوى الدلالة :
4 - 1. أدبيا
4 - 2. سياسيا
4 - 3. اقتصاديا
4 - 4. إيديولوجيا
- الإحالات .

1- تقديم :

سأوجه قراءتي لهذا النص صوب المنهج النصاني الذي يغدو المحطة التي أقف عندها ، محاولة ولوج أعماق هذا النص وسبر أغواره ، والكشف عن دلالته الباطنية ، وسأعمل –كما يصرح بارت دوما في كتاباته – على تنجيم النص قبل قراءته ، لأن النص عبارة عن مجرة (Galaxie) في نظر بارت ، يحق للقارئ أن يوجه لها رؤياه

من حيث ما شاء . فاختراق أفق تمنع النص عن قراءته سيغدو عملية ناجحة جدا إذا ما أفلح القارئ في الإمساك بتلابيبه ؛ إذ سيعمل على بناء أفق أرحب وفق صياغة جديدة تنوب عن النص وعن عالمه المتخيل . لذا ، فأي قراءة ستكون وفق المنهج النصاني هي قراءة مبررة إذا ما حدث نوع من اللقاء والتماهي بين الموضوع والمتلقي .

إن امتصاص معاني النصوص يدفعنا إلى التعامل معها كدوال متعددة المعاني polysémie حتى وإن كانت كلاسيكية ؛ لأنها ترتبط بأسباب وحقبة جمالية وإيديولوجية وثقافية ، لكن بارت يصيغ كل ذلك في معادلة طرفاها النص والمتلقي .

إن هذه المعادلة تبدو بسيطة ، لكن في البساطة يكمن الغموض كما يقول بارت ، وعليه فلا توجد نصوص فقيرة ونصوص غنية ؛ لأن نصوص الكتابة هي نصوص مجاملة ، وبالتالي ، فإن الخاصية المتعددة لهذه النصوص تفرض قراءات متعددة ومعانٍ متعددة .

وعلى هذا الأساس ، سأوزع دلالات هذا النص على ثلاثة مستويات – معتدة في ذلك بدراسة محمد القاضي – بحيث سيتكفل كل مستوى بمقاربة مدى معانيه وإلحاقها ما استطاع بمسارها الصحيح .

جاء هذا النص في الكتاب " كليلة ودمنة " لابن المقفع ، وهو الفصل الأول من الباب الرابع ، وعنوانه " الناسك وابن عرس " . وقد عقد هذا الباب لأغراض مختلفة ، فكان غرض هذا النص الذي بين أيدينا للذي يبادر بفعل شيء وهو يحسب أنه مصيب ، لكنه سرعان ما يندم بعد علمه بخطأ ما فعله .

2 – مستوى الأعمال :

ونعني به هنا المقطع ، « وقوامه الوحدات التي تحيل على عمل أو سلوك إنساني ، ولما كانت هذه الأعمال تنتظم في مجموعات ، فإن بارت يرمز لكل مجموعة بعنوان ويجعل لها رقما ترتيبيا ، ولا يوجد المقطع في نظره إلا حين نغدو قادرين على وسمه ، وأساسه يقول تجريبيا أكثر منه تطبيقيا ؛ لأن القارئ يبحث عنه ، فإذا ثبت له وجوده أسند إليه اسما ، وليس من جدوى في إدراج المقاطع عنوة في نظام ما ، واستخراجها بهذه الطريقة كافٍ لإبراز المعنى الجمع الذي يتصف به نسيجها . [1] »

ويمثل هذا النص سنة في التأليف استقر أمرها منذ القرون الهجرية الأولى ، وهي قيام النص على ثنائية السند والمتن ، وسند هذا النص مزدوج ، نصفه متجسد في اسم مفرد معرف (الفيلسوف) ، ونصفه الآخر فعل مسند إلى فاعل جمع نكرة " زعموا أن " ، وكما هو معلوم ، فإن « وظيفة الإسناد توثيق الخبر بذكر راويه أو سلسلة رواته ، ولكن الإسناد هنا خيالي ، ودوره قصصي محض يستفاد من جملة الصلات التي تجمعه بالمتن [2] » .

أما المتن فقصة تدور فيها أحداث تضطلع بها شخصيات ، تكوّن معا المجال الأول من مجالات التحليل ، أي النص بما هو خبر ، وهو كل ما نطق به الراوي ، وبذلك فهو خطاب موجه ومعزو إلى شخص معين ظاهر (بيدبا) . ولئن كان المتلفظ بنص المتن هو الفيلسوف وعلامته ضمير الغائب ، فليس هو المتلفظ بنص الإسناد ،

ولقد اقتضى المتكلم متكلما آخر هو زوجة الناسك التي هي وجه آخر وراوٍ ثانٍ مستتر يتحدث على لسان ابن المقفع .

إن هذا الراوي المحتجب ، وهو المتكلم المحتجب أنا في الإسناد ، ويتوجه إلى مخاطب آخر خفي هو أيضا أنت ، وهذا المتكلم المحتجب ، وذلك المخاطب الخفي هما الكاتب والقارئ .

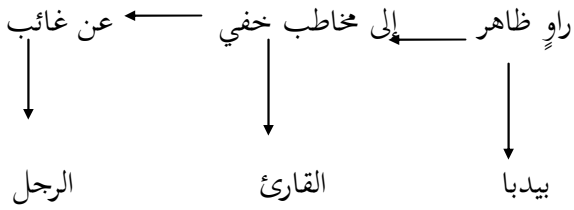

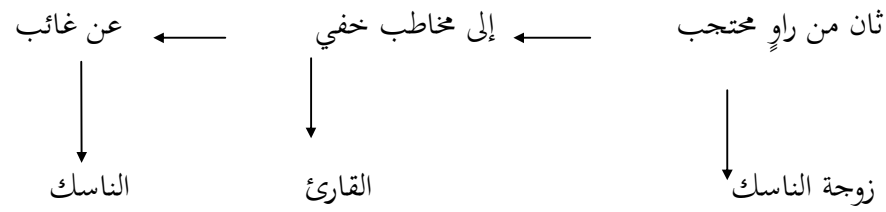

فرواة الحديث – إذن – ثلاثة : الراوي الأول والراوي الثاني ظاهران ، وهما بيدبا وزوجة الناسك ، أما الثالث فمستتر ، وهو الكاتب .

وللنص قصتان تبدو الأولى كالمسكوت عنها ، وهي مختزلة في « قالت زعموا » ، ومن ثم تنكشف العلاقة بين المتن والإسناد عن تركيب تضميني حكاية تروى في إطار حكاية. والقصة الأولى التي دارت أحداثها حول الناسك ، إنما هي مجرد حيلة فنية تمكن الكاتب من خلالها أن يتكلم دون أن يرى؛ فزوجة الناسك والفيلسوف لم يتكلما إلا بما أوعز إليهما ابن المقفع ، فهما اثنان من أقنعته .

من هذا نستنتج أن النص يقوم من حيث الأعمال على ثلاثة مقاطع ، يختلف كل مقطع عن الآخر ، لكن كل واحد يكمل الآخر . ونرى أن الكاتب تدرج من خلال هذه المقاطع الثلاثة ليبث رسالته وهو تدرج العارف الضليع بالأمور ، وهو في ذلك مثل الرجل العجلان الذي لا يتسرع في أمره من غير روية ولا نظر في العواقب ، وكأنه يقول هنا إن رسالتي متأنية ومتدرجة شأنها شأن الحديث الذي دار بين بيدبا ودبشليم ، والذي قاد إلى حكاية الناسك وزوجته ، هذه التي روت لزوجها حكاية الناسك ، ثم لتعود مرة أخرى مع حكاية الناسك وابن عرس .

– المقطع الأول : يبدأ من " قال دبشليم ... " إلى " كيف كان ذلك " .

– المقطع الثاني : يبدأ من " قال الفيلسوف ... " إلى " كيف كان ذلك " .

– المقطع الثالث : يبدأ من " قالت زعموا ... " إلى " بالسرعة والعجلة " .

2 . 1 . المقطع الأول :

يحتوي المقطع الأول كغيره من أبواب كليلة ودمنة على الشخصيتين المركزيتين ، اللتين كانتا المحركتين الرئيسيتين لأحداث الحكاية ، وهما دبشليم والفيلسوف بيدبا . ونرى في هذا المقطع كيف يطلب الملك من الفيلسوف أن يأتيه بمثل عن الرجل المتعجل في أموره ، وسرعان ما يجيبه الفيلسوف بنتيجة العجلة ، قبل طرح القصة لينتهي بعد ذلك هذا المقطع بسؤال الملك وكيف كان ذلك ؟

وهذا السؤال هو حيلة فنية من حيل الكاتب ، وهدفه من ذلك التدرج والتأني في تبليغ الرسالة التي أراد توصيلها، وكما يفتح له السؤال أفقا أرحب للتعبير عما يؤرقه ، وهو بذلك – أي السؤال – نهاية كلام الملك ، وبداية كلام الكاتب .

2 . 2 . المقطع الثاني :

يبدأ فيه الفيلسوف بسرد الحكاية التي تلائم الغرض الذي من أجله طلب الملك الحديث ، ونرى في هذا المقطع ظهور شخصيتين ، هما شخصية الناسك وزوجته الجميلة ، وشخصية ثالثة هي الجنين الكامن في بطن أمه كمون شيء ما في قلب ابن المقفع ؛ ولأنه ذكر في هذا المقطع ولم تدب فيه الحياة بعد ، فلأن الكاتب أراد ذلك وأراد أن يقول إن الأمور تؤخذ بالروية للوصول إلى ما يمكن تحقيقه . وفي هذا المقطع كذلك يحول ابن المقفع الكلمة من الفيلسوف إلى زوجة الناسك ، لأنها أدرى وأعرف وأعلم وأقرب من الجنين الذي سأعتبره بؤرة الأحداث ، وهذا التناوب (تناوب الرواة) والربط بين الأم والجنين من لدن ابن المقفع إنما يوحي لنا بانتقال الحكاية من ظاهر الشخص إلى باطن الذات (ذات ابن المقفع) .

هكذا ، يتدرج بنا النص من حركة الجسد إلى حركة الروح ، ومن سطح الكائن إلى أعماقه ، ومن الفهم الساذج إلى الإدراك الصحيح ، « فليس الراوي مرآة محايدة ؛ لأنه لا يتحدث من لا مكان ، بل من موقع معين ، وفي اتجاه معلوم . [3] »

إن منطق الكاتب هنا منطق تعليمي ، كالذي يتوخى عند بعض المذاهب (كالشيعة الباطنية ، وإخوان الصفا) ، ويعتمد المراحل في تلقين الحقائق والأسرار .

2 . 3 . المقطع الثالث:

هو أهم مقطع ، ويتضمن رؤى الكاتب وحيله ، وهو بؤرة التوتر ومرحلة كشف القناع عن المتكلم ، ولأهميته سأحاول تقسيمه إلى مقاطع جزئية ثلاثة :

– المقطع الجزئي الأول : من " قالت زعموا ... " إلى " على وجهه " .

– المقطع الجزئي الثاني : من " وإنما ضربت لك ... " إلى " مع الرسول " .

– المقطع الجزئي الأول : من " فخرج ... " إلى " بالسرعة والعجلة " .

– المقطع الجزئي الأول :

تتحرك وحدات هذا المقطع الجزئي من خلال ثنائيات أربع ، مولدة للتحول فيه ، وهي :

1 – الحركة والجمود: تنطلق أفعال هذا المقطع من الجمود إلى الحركة . فالناسك كان يعيش في جمود يأتيه الأكل (دون حركة منه) من غيره ، وهو ساكن في مكان لا يتحرك . ويمثل هذا المستوى أفعال هي (يجري) ، وهو فعل حركي فاعله التاجر وليس الناسك ، والأفعال : يأكل ، يرفع ، يعلق ، وهي أفعال جامدة تنتظر الحركة ، وإن كانت تعج بالحياة . ثم تتبع هذه الأفعال أخرى تسير وفق المخطط الخيالي الذي رسمه الناسك ، وسأعتبرها من هذه الناحية أفعالا متحركة على غرار ما تبدو عليه في الواقع .

2 – السر والانكشاف : تنكشف نوايا الناسك، ويسدل عنه الكاتب ثياب النسك ، وذلك بأحلامه الكثيرة ، وهي أحلام يصعب على الناسك تحقيقها ؛ إذ يبدو أنه يريد أن يصل إليها فعلا ، ومنفعل لذلك أشد الانفعال . وقد جسدت انفعالاته الجملة التالية : « فإذا ترعرع أدبته وأحسنت تأديبه، واشدد عليه في ذلك ... وإلا ضربته بهذه العكازة ، وأشار بيده إلى الجرة فكسرها وسال ما فيها على وجهه . [4] »

إن أفعال مثل أدب ، وشدد ، وضرب ، وكسر هي أفعال قوية شديدة ، فيها إصرار ، وهي تدشن الأحداث الفعلية في هذه المقطع ؛ إذ تكشف بطريقة ما عن هوية الناسك ، الذي ما كان ليكون إلا ابن المقفع نفسه .

لقد جعل ابن المقفع الناسك يعبر عما يختلج في صدره ، من خلال حركة دائرية ، تبدو في ظاهرها مرتجلة ، ولكنها – في الحقيقة أمرها – مفتعلة ومدبرة ، فيتراءى لنا الناسك فيها غير مسؤول عن تصرفاته وعن نتائج أفعاله ، وهو ما حدث فعلا للناسك الذي لم يقصد تكسير الجرة ، وإنما قصد التعبير عن رغبة كامنة ، جامحة ، وملحة في تحقيق الفعل . وإذا كان الناسك لم يقصد إنجاز فعل التكسير الذي يؤدي لا محالة إلى حرمانه من قوت يومه، فإن ابن المقفع مستعد إلى تكسير شوكة كل من يعترض طريقه ، فحتى جرة العسل ليست من الأهمية بمكان ، وهي رمز لشيء ذي قيمة ، ولكن قيمة هذا الشيء تزول بقيم أكبر منها .

3 – الرغبة والرهبة : تبدأ من " فبينما الناسك ذات يوم ... " إلى " سأبيع وأشتري " .

إن الرغبة هنا ظاهرة ، وقد هيأ لها الكاتب الجو الملائم لإثارة الناسك ، فكل شيء يثير ويرغب أمام فقره المدقع، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، نجد أن في فعل الاستلقاء راحة ، والراحة تدفع بالرغبات إلى مهب العصيان ، وفي فعل الإمساك بالعكازة إصرار وإرادة لتحقيق الرغبة ، وفي فعل التعليق " والجرة معلقة فوق رأسه " [5] فتنة وإغراء . أما أفعال الرهبة فتبدو في أدبته ، وأشدد ، وضربته ، والفعل المتحقق كسّرها .

– المقطع الجزئي الثاني:

يبدأ من " ضربت لك ... " إلى " مع الرسول " .

في هذا المقطع تتسع دائرة الأحداث ، وتبدأ بفعل الانطلاق (انطلقت) ، أي زوجة الناسك ، وهي وإن لم تكن بطلة القصة ، إلا أنها محركة الأحداث فيها . فبها تتشابك أمور الناسك وتتعقد ، وذلك على إثر مجيء رسول الملك ليستدعيه . فالانطلاق هو بداية الأحداث ، والزوجة منطلقة وباقية في الوقت نفسه ، راحلة ومنشقة ، وبذلك نلاحظ أن هناك ازدواجية في الحركة ضمن الانقطاع المادي عن البيت إلى الاتصال الروحي بالمجموعة (الناسك وابنه) . ففعل الانسحاب – أي انسحاب زوجة الناسك – هو فعل اضطراري ، وحيلة فنية استعملها الكاتب حتى تسير الأحداث في الاتجاه الذي قدره لها . وبهذا المعنى المضمر ، يشير خروج المرأة للاغتسال إلى أن « الدال مفرد والمدلول جمع ، إذ تخاطبنا العبارة على الحقيقة والمجاز ، فتطق بالمعنى ومعنى المعنى [6] ». فكما قلت من قبل ، إن الجنين الذي تجسد حقيقة وواقعا هو الوجه الآخر للأم، التي هي مرآة عاكسة للكاتب يستظل بها ويظلل من خلالها ، بل يجعلها سبب البلاء الذي حلّ بالناسك ؛ وهي بذلك تغدو طرفا مهما في فعل القتل – قتل الناسك لابن عرس – وفي فعل الإحساس بالندم ، ويحوي هذا المقطع الجزئي ثنائيتين :

1 – الانفصال والاتصال : بمعنى انفصال زوجة الناسك عنه ، وجسد هذا الانفصال الفعل " انطلق " ، كما في فعل خروج الناسك عن بيته انفصال عن المولود وابن عرس، ليحيل بعد ذلك هذا الانفصال على اتصال، وأوله اتصال الأم بمولودها ، فهو إحالة غير مباشرة لأفكارها وثانيه اتصال ابن عرس بالمولود، وهو اتصال مباشر سمح به الناسك ، إذ جعل من ابن عرس عديل ولده .

2 – الإخبار والاستخبار :

جاءت هذه الثنائية عبر مرحلتين :

– المرحلة الأولى : بين الناسك وزوجته .

– المرحلة الثانية : بين الناسك ورسول الملك .

والملاحظ في هذه المقطع أن رغبة الكاتب لا تزال مضمرة، وهي تتضح شيئا فشيئا ، والأكثر أنه يجعل مثل حكايته عديل ما يخفيه ، ففي قوله « فتركع عند الصبي وأغلق عليهما الباب وذهب مع الرسول [7] » ، استمرار وبداية تحقق فعلي ، عبر عنه بالفعل أغلق ، إذ المهم عنده ما سيحدث للصبي ، وابن عرس هو وسيلة ثانية استعملها بعد فشله في تمرير رسالته عبر القصة الأولى التي روتها المرأة لزوجها الناسك. فالجرة في القصة الأولى وابن عرس في القصة الثانية يعدان فعلين إغراء ؛ لأن ندم الناسك في القصة الأولى كان سببه جرة العسل، وسيكون ابن عرس هو الآخر سبب الندم الذي يحل بالناسك في القصة الثانية . ربما نقول : كيف ذلك ؟ أقول بأن الناسك جعل ابن عرس عديل ولده، فتركه مع الصبي وأغلق عليهما الباب وذهب مع الرسول، فاطمئنان الناسك لهذا الحيوان الداجن هو من باب إغراء هذا الأخير له إغراء بالطبع بالاطمئنان والراحة له ، وهو وإن كان في الأول إغراء ماديا ، فهو في الثاني إغراء روحي .

لقد دبر الكاتب عن قصد تسلسل الأحداث بهذا الشكل ، وذلك حتى يؤكد ما يريده بينهما من قرابة النسب . فالثاني صورة من الأول ، وهو امتداد منطقي له ، وبهذا ينمو أسلوب ابن المقفع المتواري بين السطور ، ليحقق به صورة أخرى من فكره الشعوبي .

– المقطع الجزئي الثالث :

يبدأ من " فخرج من بعض أحجار ... " إلى " هذه ثمرة العجلة " .

في هذا المقطع تدب حياة وتنتهي أخرى ، تدب حياة الولد وتنتهي حياة ابن عرس بعدما كانت تتراءى له وكأنها البداية « فالتقاه ابن عرس كالمبشر له بما صنع من قتل الحية .[8] »

يحتوي هذا المقطع الجزئي على ثنائيتين ، هما :

1 – النجاح والسقوط : حمل ابن عرس راية النجاح ، وجسد ذلك في فعل التبشير ، فكأنه حمل الحياة للناسك ، كيف لا وقد كان ابنه قاب قوسين أو أدنى من الموت ، لكن المفاجأة لم تكن لتنتهي ، إذ سارت الأمور في الاتجاه المعاكس لما كان توقعه ابن عرس ، فالناسك لما « رآه ملوثا بالدم، وهو مذعور طار عقله وظن أنه قد خنق ولده .. ولم يتثبت في أمره .[9] »

في الأول وصف لحالة ابن عرس ، وهي حالة مصاحبة لفعل حقيقي منجز ، وفي الثانية وصف لحالة الناسك الذي ذعر لما رأى فم ابن عرس ملوثا بالدم ، وهي حالة مصاحبة كذلك لفعل حقيقي غير مثبت . فحالة الناسك غير محققة لأسبابها ، وهي وإن بدت أماراتها ، لم تعبر عن الحقيقة ولم تنقلها ، بل نقلت ما بدا في الظاهر ، وهو حالة ابن عرس وما رافقها .

لقد استطاع الكاتب من خلال مخاطبة العاطفة تنفيذ مشروعه ، فهذه الحيلة هي التي أسقطت ابن عرس في معترك الأحداث ، فما الشيء الذي يمكن أن يفكر فيه الناسك في تلك اللحظة غير تفكيره في ابنه ، فهو لا محالة قاتل المولود ، وهو الذي كان عنده عديل ولده ، فتركه عند الصبي وأغلق عليهما الباب وذهب مع الرسول .

إن هذا السقوط موت ابن عرس يقابله نجاح (حياة الولد) زوجة الناسك ، التي قلنا سابقا إنها مرآة عاكسة لنوايا الكاتب . فبدخولها سقط ابن عرس ، ودبت الحياة من جديد فيها وفي الولد ، ضده الحياة تقابلها حياة أخرى هي حياة الندم بالنسبة للناسك . ففي الندم سقوط ، وفي السقوط موت .

نلاحظ أن ابن عرس والناسك هما المغرر بهما في هذا النص ، وقد اتخذهما الكاتب وسيلتين للتبرير والتحذير . فكأنه يقول : إن الحذر مطلوب حتى وإن كان في غير موضعه ، فهذا الناسك الذي زهد في الدنيا وانقطع إلى ربه عن ملذاتها ، يجب ألا نأمن له لأنه يبطن عكس ما يظهر ، وابن عرس هذا الحيوان الداجن ، الذي لا نفكر البتة في أنه سيؤذينا ، يجب أخذ الحيطة والحذر منه كذلك .

إننا نرى أن التحذير الأول – الممثل بالناسك – موجه إلى الفرس موطن ابن المقفع ، أما التحذير الثاني – الممثل بابن عرس – فهو موجه إلى العرب . والكاتب في الحالتين يظهر فكره الشعوبي والعرقي المعادي للعرب ،

وهو بذلك يغرس فلسفة الشك ويعلنها صراحة في قصته الثانية . فربما استعماله لابن عرس هو من باب تمثيله بالموالي ، ونحن نعرف موقف العرب منهم ، فهذا المولى (ابن عرس) ، الذي قيل عنه " كلب خير من مولى " ، سيدخل الحيرة والريبة في قلب كل عربي .

2 – الإخبار والاستخبار :

قالت له : ما شأنك ؟ ← إخبار متعلق بالنص

فأخبرها بالخبر ← استخبار

فقالت هذه ثمرة العجلة ← إخبار النص كاملا

3 – مستوى الفواعل :

كنا قد خرجنا من التحليل السابق بنتيجتين ، أولاهما أن هذا المثل قائم على التضمين (إذ فيه قصة إطار وقصة مضمنة) وثانيتهما أن هاتين القصتين منصهرتين في كيان سردي جسدته وحدة المقاطع . وانطلاقا من هاتين النتيجتين ، سأعكف على دراسة هذا المستوى المخصص لدراسة الشخصيات المضطلعة بالأفعال .

3 . 1 . الشخصيات :

– في القصة الإطار : شخصية الناسك ، زوجته ، المولود ، ابن عرس .

– في القصة المضمنة : الناسك .

وبشيء من التأمل ، نرى أن بعض هذه الشخصيات ثابت، وبعضها متحول . فالثبات تمثله شخصية الناسك وابن عرس ، والتغيير تمثله شخصيتان ، هما زوجة الناسك وابنها ، ونرى أن شخصيات الثبات والتحول قد مرت فيما مضى بمرحلتي الانفصال والاتصال .

نلاحظ أن تغيب زوجة الناسك وابنها كن في المقطع الثاني ليعودا من جديد في المقطع الثالث، لكن سرعان ما تغيب الزوجة وتترك الابن مع زوجها لتظهر مرة أخرى . إن تغييب شخصية فاعلة كهذه في القصة من قبل الكاتب هو تغييب واعٍ يسمح له بتنفيذ ما يريده ، ولكنه في الحقيقة تغيب جزئي ولحظي لا غير ، فكأن ابن الناسك يظهر –في المقطع الثالث– ليتقمص شخصية أمه ويكمل الدور الذي أسداه لها الكاتب. فالشخصيتان تتبادلان الوظيفة بطريقة غير مباشرة ، وابن المقفع يوهمنا بأن هذا الغياب كان نتيجة لموقف إجباري ، ولكي يضللنا بهذا الإيهام ، عمل على بث شخصية أخرى فاعلة وعنصر محرك هو ابن عرس ، فكأنه جاء ليغفر لنا خروج زوجة الناسك ، وهي بهذا تكون شخصية واسطة . (intermédiaire)

إن شخصيتي الناسك وابن عرس هما الوحيدتان اللتان تحولتا من وضع إلى آخر ؛ فالناسك تحول من عاقر إلى مخصب (أب) ، ومن ناسك إلى قاتل ، ومن هادئ إلى منفعل نادم وضعيف . وكذلك الأمر بالنسبة إلى ابن عرس ، فقد تحول من مدافع (عن الصبي) إلى مهَاجم (من قبل الناسك) ومن قاتل (الحية) إلى مقتول (من لدن الناسك) .

3 . 2 . الفاعلية والمفعولية :

كان الناسك فاعلا (عاقرا) ، فأصبح مفعولا به (أب) ثم فاعلا (خارجا للملك) ثم مفعولا به (مذعورا) ، ثم فاعلا (قاتلا ابن عرس) ، ثم مفعولا به (نادما) .

أما ابن عرس، فقد كان مفعولا به (حارسا على ابن الناسك) ثم أصبح فاعلا (مدافعا) ثم مفعولا به (عندما التقى بالحية) ثم فاعلا (قاتل الحية) ، ثم مفعولا به (مقتولا) ، ثم فاعلا (فأخبرها من حسن فعل ابن عرس وسوء مكافئته له) .

وهكذا نلاحظ أن :

- الناسك تحول من الفاعلية إلى المفعولية .
- ابن عرس تحول من المفعولية إلى الفاعلية .

4 – مستوى الدلالة :

ليس النص مجموعة دلائل (مختلفة) مغلقة مرتبطة بمعانٍ يمكن إيجادها ، إنه حجم من الآثار المغلقة ، فهو متوالية من الدلائل المفتوحة تنتقل عبر نسيج نصي لتنتفح على عالم متعة القراءة . وهو محاولة الإمساك بهذه الرغبة الملحة التي تدفعنا دوما إلى اغتصاب ما تسكت عنه النصوص ، علنا نصل من وراء هذا الاغتصاب إلى السر الخفي وراء كل نص يدّعي خاصية الإغراء ، فكاموسترا بارت لا تتحقق إلا بوضع نصنا – أي نص – عروسا تقاوم ليس في جمالها ، ولكن في غنجتها ودلالها . فكذلك النص ، لا بد لنا من طريقة تمكننا من التحايل عليه لجعله مرغما على الاعتراف بقصديته ، بغية تحقيق فعل الخديعة (القراءة) للإمساك بتلابيب المعاني المخفية وراء كل سطر يدعي الانغلاق .

ولن نتمكن من الوصول إلى المعنى الخفي إلا بمصاحبة دلالات النص المترامية عبر أطرافه ؛ هذه الدلالات التي هي – في حقيقة أمرها – علامات لا تظهر أبعادها إلا إذا ربطت بسائر العلامات التي تماثلها ، حتى ينشأ لنا منها نص أكبر هو نص الحياة ، وأبعادها تتحقق من خلال تعرضي للجوانب الأدبية والسياسية والاقتصادية والإيديولوجية .

4 . 1 . أدبيا :

يعود هذا النص إلى القرن الثاني الهجري ، وهو عصر كان التدين فيه قد بدأ ، وأخذ العلماء يجمعون من أفواه الأعراب والرواة كلاما يدونونه، وقد انصرفت معارفهم إلى صنوف المعارف ، أهمها الدين والتاريخ والشعر .

يوقفنا هذا النص على ظاهرة اعتمدها ابن المقفع في كتاباته ، وهي أنه توسل بطريقة في الكتابة سائدة في عصره ، وهي الابتداء بالسند ووظيفته الخبر في علم الحديث ، أما هنا فهو خيالي ودوره قصصي محض يستفاد من جملة الصلات التي تجمعه بالمتن .

والسند – رغم دلالته الظاهرة على التقليد – هو خروج عما ألفه العرب ؛ إذ الكاتب يحيل على الناسك من جهة ، ويجعل المروي محكوما بفعل زعموا الذي يشكك في المتن من جهة ثانية .

أما المتن ، فهو وإن كان يحمل في الظاهر سمات التجديد ، فإن يحيل على نص المخاتلة وإذا نبا إزاء ظاهرة التموج ، فتكون بعض السمات مترددة بين الظهور والخفاء ، ولكنه تموج بشيء من الانغلاق .

4 . 2 . سياسيا :

حين نقرأ هذا النص ، نقف على كلمات من قبيل : الناسك ، القظ ، نادما ، تتطهر ، اغتسل ، وعلى كلمات من قبيل : منافع ، رجل تاجر ، رزق ، سأبيع ، سأشتري ، انتفع ، استأجر ، أصبت ، إماء ، عبيدا ، أتزوج ، وعلى كلمات أخرى من مثل : أهرق ، ضربته ، أشدد ، قتلها ، قطعها ، ملوثا بالدم ، خنق ، ضرب ، مات ، لطم راسه ، غدر . وهذه الكلمات تشد النص إلى معجم سياسي صريح .

إن النص – كما هو ظاهر – يضعنا أمام أقطاب ثلاثة ؛ الناسك وزوجته وابن عرس والعلاقة بين هذه الأقطاب قائمة على حالات ثلاث، هي : القاتل (الزوجة) المقتول (ابن عرس) ، والضحية (الناسك) ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، فالناسك في القصة الأولى الذي خلع لباس النسك بحركة دائرية لا واعية هو ممثل أول (représentamen1) أو موضوعه جرة العسل وتأويلها متعة الحياة . فعلامة كهذه تنوب عن شيء ما ، وهذا الشيء هو موضوعها ، وهي لا تنوب عن ذلك الموضوع كل الوجهات ، بل تنوب عنه بالرجوع إلى نوع من الفكرة . (10)

أما في القصة الثانية – أي القصة الإطار – فهو ممثل ثان (représentamen 2) لموضوع إجرائي لا أكثر ولا أقل ، يكمل من خلاله قوانين اللعبة التي باتت مكشوفة لدينا ، وهو حدث فردي (قتله لابن عرس) كما هو ظاهر في النص ، ورمزه الموضوع الذي نحن بصدده .

أما الزوجة ، فهي مدار النص وقطبه المحرك ، وهي إيقونة من إيقوناته ، و « هي تدل على شيء تجمعه إلى شيء آخر علاقة مماثلة ، ومن هنا تبدو علاقة المماثلة رابطة طبيعية (11) »بين الكاتب وزوجة الناسك . أما ابن عرس ، فهو القطب المحمول ، وجسر مرور أفكار الكاتب . وقد اتخذه أداة مطواعة سهلة لتنفيذ مشروعه الإيديولوجي . وهو ، إذ يبدو لنا في النص بصورة الضحية، وما هذه الصورة إلا لكونه حيوانا صامتا يستحيل كلامه ، إلا أنه في حقيقة أمره ضحية مشكوك فيها ، إذ يصور الكاتب نفسه من خلاله دون أن يدري ، وهو بذلك يكشف نفسه وفق رؤيا عكسية ، فكأنه يقول لنا أنا شبيه بابن عرس ، وقعت في مصيبة بعدما كنت كالمبشر لما فعلت .

4 . 3 . اقتصاديا:

يصور لنا النص حركة صراع بين نوعين من القيم : قيم مادية تجسدت في رغبة الناسك في القصة الأولى في الحصول على متاع الدنيا .

قيم مادية تجسدت في رغبات كثيرة [رغبة الناسك في الأطفال (القصة الإطار) ، ورغبة الزوجة في الاغتسال ، ورغبة ابن عرس في التبشير] . ولئن كانت هذه القيم بنوعيها تظهر وتختفي، على سبيل التموج ، فإنها قد ترابطت أيضا على نحو منغلق ، إذ أن النص هو تصوير لعملية تبادل واضحة عن طريقالأدوار [12] . فالزاهد أعطى أو حقق المثال الذي من أجله قدم النص وطرح قيم دينه ، وأخذ الندم ، والزوجة أخذت قيم دينها بذهابها إلى الاغتسال ، وهو حدث مفتعل ، وأعطت المجد لابنها (دلالة على ثقتها في الدور) . أما ابن عرس ، فقد أعطى الحياة لولد الناسك ، وأخذ الموت لنفسه .

4 . 4 . إيديولوجيا :

لقد كتب النص في النصف الأول من القرن الثاني الهجري ، إذ أن ابن المقفع عاش بين سنتي (106 – 142 هـ) ، وهو طور خطر من أطوار الدولة الإسلامية . وهذا الرجل ، الفارسي الأصل العربي النشأة ، آثر أن تكون الأوضاع معقدة من البدء ، رجل ينتمي إلى ثقافة أمة مغلوبة يغير انتماءه إلى الأمة الغالبة ، ثم ينقل من أمته القديمة هذا الكتاب إلى أمته الجديدة . والنص ينضح بهذا الواقع جيئة وذهابا (ظهور وزوجة الناسك واختفاؤها)، فهو في لغة الغالب ظاهره نصح له وتثبيت لأقدامه ، ولكنه من أصل فارسي باطنه خداع وتهكم. ومن ثم ، تجوز القراءة : أفليس الزوجة التي كانت في البيت وخرجت تاركة اكتمال الحدث إلا بلاد فارس التي شاخ سلطانها ، وربما في خروجها للاغتسال ، وفي عودتها عملية تبشير وتنبؤ ابن المقفع بعودة الفرس إلى الحكم من جديد . ولئن رفض بنو أمية أن يتخذوا من الفرس أسيادا ، فقد قبل بنو العباس بذلك ، حتى قيل إن الأموية دولة عربية والعباسية دولة إسلامية. وبناء على هذا ، فإن النص ناطق بإيديولوجيا صريحة ، لها دعامتين :

1 – إن أحوال الناس وأحوال الأمم دول ، فيوم لك ويوم عليك (وضع الناسك وابن عرس) .

2 – إن القانون المتحكم في التاريخ واحد ، وهذه الفكرة تولد من حنايا الاستقرار والهزيمة ومضة الأمل في عودة الأحوال إلى صورتها الأولى .

– الهوامش والإحالات:

[1] – محمد القاضي ، تحليل النص السردي (بين النظرية والتطبيق) دار الجنوب للنشر ، تونس 1997 ، ص 52 .

[2] – توفيق بكار ، جدلية الشرق والغرب ، مجلة الحياة الثقافية ، عدد 13 ، تونس 1981 ، ص 10 .

[3] – المرجع السابق ، ص 13 .

[4] – ابن المقفع ، كليلة ودمنة ، موفم للنشر ، (دط) ، 1993، ص203.

[5] – المصدر نفسه ، ص 202.

[6] – محمد القاضي ، تحليل النص السردي ، ص 55 .

[7] –– ابن المقفع ، كليلة ودمنة ، ص 203.

[8] – المصدر نفسه ، ص 203.

[9] – المصدر نفسه ، ص 203.

[10] – عبد الله الراحم ، سعيد الغانمي ، عواد علي ، معرفة الآخر (مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة) المركز الثقافي العربي ، بيروت ،لبنان ، ص 79 .

[11]– المرجع نفسه ، ص 95 .

[12] – محمد القاضي ، تحليل النص السردي ، ص 18 .